

الخطاب السياسي في شعر ابن هانئ المغربي

أ/إبراهيم قادة

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريش

الخطاب السياسي في شعر ابن هانئ المغربي

يكاد ابن هانئ (1) ينفرد في هذا الباب عن باقي الشعراء ، وكثيرا ما كان يمزج مدحه للمعز (2) وولادة الفاطميين أو رثاءه لنسائهم وأولادهم بآرائه السياسية التي تدعم نظريتهم في الإمامة وأحقيتهم في الملك ، فهم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينمى نسبهم إلى فاطمة بنت رسول الله وزوج علي بن أبي طالب ، وأم السبطين الحسن والحسين ، فهذه العترة المباركة هي أصل الفضيلة ومحمد المكارم ، وقد غصب الأمويون والعباسيون هؤلاء الأطهار حقوقهم وشردوهم في البلاد ولاحقوهم بسيوفهم وغيروهم في كل مكان ، لذا وجب الانقضاض عليهم والثورة في وجوههم ، وقد أنعم الله على هذه الأمة إذا أرسل فيهم المعز الفاطمي الذي سيجدد معالم الدين ويحمي حوزة المسلمين ويجمع شتات المضطهدين والمظلومين من بيت آل علي ، يقول ابن هانئ من قصيدة له في مدح المعز : [من الكامل] :

أَبْنَاءُ فَاطِمَ أَهْلٍ لَنَا فِي حَشْرِنَا لَجَأُ سِوَاكُمْ ، عَاصِمٌ وَمُجَارٌ ؟

أَنْتُمْ أَجْبَاءُ الْإِلَهِ وَالْهُخْلَفَاؤُهُ فِي أَرْضِهِ الْأَبْرَارُ

أَهْلُ النَّوَّةِ وَالرَّسَالَةِ وَالْهَدَى فِي الْبَيِّنَاتِ ، وَسَادَةُ أَطْهَارُ

لَوْ تَلَمَّسُونَ الصَّخْرَ لَا تَبْجَسَتْ بِهِ وَتَفْجَرَتْ ، وَتَدَفَّقَتْ أَنْهَارُ

لَسْتُمْ كَأَبْنَاءِ الطَّلِيحِ ، الْمُرْتَدِّي بِالْكَفْرِ ، حَتَّى عَضَّ فِيهِ إِسَارُ

أَبْنَاءُ نَثْلَةٍ ! مَا لَكُمْ وَلَمَعَشَرٍ ؟ هُمْ دَوْحَةُ اللَّهِ الَّذِي يُخْتَارُ

رُدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ ، وَتَنَكَّبُوا وَتَحَمَّلُوا فَقَدْ اسْتَحَمَّ بِوَارُ (3)

يبدأ الشاعر دفاعه المستميت عن الأسرة العلوية بقوله " أبناء فاطم " فهو ينسبهم إلى الأم الأولى للشيعية ، هذه الأم التي منحت للإسلام ذخرين كبيرين كان منهما النبع الصافي والولد الصالح ، ويغالي الشاعر في تشييعه ، ويرى أن لا شفاعة يوم الحشر إلا لأبناء فاطمة وآلها ، فطلب الشفاعة يكون منهم فقط ولا يتجاوز إلى غيرهم ، وهذا أعظم تشريف لهم لأن الشفاعة لا تكون إلا

للأنبياء والمرسلين ، ولا عجب في أن نجد الشاعر ينزل ممدوحه الشيعي منزلة الأنبياء ، وقد صرح في غير موضع بذلك كقوله :

فَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ
هَذَا الَّذِي تُجَدِّي شَفَاعَتُهُ عَدَا حَقًّا، وَتَحْمَدُ أَنْ تَرَاهُ النَّارُ (4)

ويلاحظ أن تقديم ذكر الأم " فاطمة " يتيح للشاعر هامشا كبيرا من حرية الوصف والمغالاة في المدح ، ذلك أن فاطمة كانت قد تحولت إلى رمز مقدس لدى الشيعة ، وساعد على ترسخ هذا الاعتقاد ما تعرضت له نساء بيت النبوة من إهانة على يد خلفاء الأمويين وولاتهم >> ففي عهد يزيد قتل الحسين بن علي الذي هو وأخوه سيذا شباب أهل الجنة - كما ورد في الأثر - قتلة فاجرة وذهب دمه عبيطا ، من غير أن غير أن ترعى حرمة دين ، وأخذت بنات الحسين وبنات علي سبايا على يزيد بن معاوية ... رأى الناس ذلك ولم يستطيعوا تغييرا ولا تحويلا فكظموا غيظهم وكتبوا نفوسهم واشتد ألمهم ، فاندفعوا إلى المغالاة في تقدير أولئك الذين غالى الأمويون في إيذائهم ، وهكذا يدفع الكبت العقلي والنفسي دائما ، فإنه يدفع إلى المبالغة في التقدير ، إذ العطف والإشفاق يدفعان إلى الإكبار والتقدير <<(5).

وإذا فقد كانت الإهانة التي تعرضت لها نساء البيت هي الدافع الرئيسي للثورة الشيعية في وجه الأمويين

ولا يفتأ ابن هانئ يشير إلى فاطمة الزهراء ، والملاحظ أن قدرا غير هين من شعره يستهل بذكر الأم ، وكأنما يريد ترسيخ فكرة توريث الإمامة إلى هذا الممدوح بعد أن قضى على أفراد الأسرة العلوية بكريلاء ، ويجرّص على إظهار ممدوحه في صورة المنتقد الوحيد للبشرية من الدرك الذي سقطت فيه ، وهو أيضا قبس من المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وعسفا ، وبذلك فصورة الشيعة وثورتهم تختلف عن باقي ثورات الزبيريين والخوارج الذين أشعلوا نار الحروب في سبيل تحصيل الملك والحصول على منافع الحكم وأموال الخراج حسب زعم الشاعر طبعاً ، ولنستمع إليه وهو بصدد مدح المعز : [من الطويل] :

سَقَى الْكَوْثُرُ الْخُلْدِيَّ دَوْحَةَ هَاشِمٍ وَحَيَّتْ مُعِزَّ الدِّينِ عَنَّا الْمَلَائِكُ
شَهِدَتْ لِأَهْلِ الْبَيْتِ أَنَّ لَا مَشَاعِرَ إِذَا لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وَأَنْ لَا مَنَاسِكُ
وَأَنْ لَا إِمَامَ غَيْرُ ذِي التَّاجِ ، تَلْتَقِي عَلَيْهِ هَوَادِي مَجْدِهِ ، وَالْحَوَارِكُ

لَهُ نَسَبُ الزُّهْرَاءِ ، دُنْيَا يَخْصُهُ وَسَالِفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْعَوَاتِكُ
إِمَامٌ رَأَى الدُّنْيَا بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِفَمَنْ كَانَ مِنْهَا آخِذًا ، فَهُوَ تَارِكٌ (6)

فهو يصف المعز بأنه " إمام " وليس حاكما أو ملكا ، فسلطته دينية بقوة العقيدة والإقناع وشرف المحتد قبل أن تكون سياسية عسكرية بقوة السيف والسلاح والأجناد كما هو الحال مع الخلافة العباسية المستبدة ، ويجب على العامة أن يكون لها اعتقاد في هذا الإمام الصالح وألا تقوم بالمشاعر والمناسك بمكة إلا وكانت ألسنتها تلهج بذكره مع التلبية والتحميد المعروفين ، ذلك أن شفاعته لها قائمة ومجدية في مقام الحرم المكي ، وهو إمام لم يملك من أجل النهل من متاع الدنيا كشأن باقي الملوك والأمراء ، وإنما لينشر العدل ويحقق أمل الرعية في الأمان والعدل ، وعلى رغم يسر الحال وكثرة المغريات فإنك تراه زاهدا محتسبا، وهذا نهج الأم فاطمة الزهراء التي كانت تحيا حياة الضنك والشدة سواء حينما كانت بنتا للنبي أو زوجة لعلي وقد روي أن النبي دخل على فاطمة ، وقد أخذت من عنقها سلسلة من ذهب ، فقالت : هذه أهداها لي أبو حسن ، فقال : >> يَا فَاطِمَةُ ! أَيْسُرُكَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ : هَذِهِ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَفِي يَدِهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ ، ثم خرج ، فاشترت بالسلسلة غلاما ، فأعتقته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّى فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ << (7).

والمعز يعلم أن دوام العز واستقامة أحوال البلاد لا تكون إلا بالبعد عن الدنيا والانصراف عن التهاالك وراء المتاع الزائل .

وبعد مدح طويل للمعز ووصف شجاعته وتعرضه للحتوف في سبيل إعلاء كلمة الحق ، يعود الشاعر مجددا إلى تأكيد الأحقية الشيعية في إمامة المسلمين والظعن في حكم العباسيين فيقول :

لَكُمْ دَوْلَةُ الصَّدَقِ النَّبِيِّ لَمْ يَقُمْ بِهَا تَتِيْلَةٌ ، وَالْأَيَّامُ هُوجٌ رَكَائِكُ
إِمَامِيَّةٌ لَمْ يُخْزِرْ هَارُونُ سَعْيَهَا وَلَا أَشْرَكَتْ بِاللَّهِ فِيهَا الْبَرَامِكُ (8)

وفي هذين البيتين يعبر نساء بني العباس اللائي أفرغن خزانتي بيت المال في سبيل إظهار الأبهة والتميز ، فهو يعرض بزييدة زوجة الرشيد بالتحديد التي >> كانت تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك ، كمثال اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحو من ألف ألف دينار ، وكمثل اتخاذا الآلة من الذهب المرصع بالجواهر ، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على

خمسین ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل ، عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمع العنبر ، واصطناعها الخف مرصعا بالجوهر <(9)> .

وقد كانت نفقات القصر هذه تؤخذ عنوة من السواد الأعظم الذي يكدح ساعات يومه من أجل دينار أو درهم وهامي تصرف في غير محلها وعلى غير مستحقها .

وابن هانئ يقابل بين بطل نساء بني العباس ، وزهد نساء قصر المعز اللائي يشاركن العامة الآلامهم وآمالهم ، وهذا الشعر هو في الحقيقة تحريض ضد العباسيين ودافع إلى تعميق الكره اتجاههم من جهة ، وترسيخ المحبة للمعز والرضى على سياسة الإمام وحكمه ، ولاشك في أن قوله "إمامية" مقابلة صريحة بين نظامي حكم بني العباس والفاطميين ، لكنها مقابلة لا تستند إلى قناعات سياسية واقتصادية بحتة في الحكم على هذا النظام بالنجاح أو الفشل ، بل تصطبغ بالصبغة الدينية التي تعطي المشروعية لبقاء النظام الفاطمي بل وتحكم عليه بالنجاح مسبقا لأنه مؤيد من السماء "فالإمامة شعار الدولة الفاطمية ، ودعامة رئاستها الدينية والزمنية ، تؤكد أهميتها وقديسيتها في كل مناسبة ، وتحرص أشد الحرص على رسومها ومظاهرها، وترسخ قواعدها، لأنها ملاذها الوحيد الذي انضوت تحت لوائه، فحاولت أن تؤكد وتثبت، وأن تدعمه بسائر الوسائل الروحية والمذهبية ، ولم تدخر وسعا في أن تستمد أسانيداً من القرآن ذاته، ومن الأحاديث النبوية، لتسبغ بذلك على مسألة الإمامة جوا من الإيمان والقدسية يسمو إلى مرتبة النبوة ذاتها" (10) .

كذلك يمكننا تفسير أكثر المصطلحات والألفاظ التي تدل على النور عند شعراء الدعوة الفاطمية ومنهم ابن هانئ في رثاء والدته جعفر وبجي ابني علي :

[من الكامل]

لَمْ يَخْلُ مَطْلَعُهَا وَلَا أَفْلَتْ وَبَنُو أَبِيهَا الْأَنْجُمُ الزُّهُرُ (11)

وقد درج الشيعة على استعمال ألفاظ الأفلاك للدلالة على أئمتهم >> فالشمس محمد ، والقمر علي ، والزهر فاطمة ، والفرقدان : الحسن والحسين <(12)> .

وبهذا كانت الشمس التي عناها ابن هانئ وخصها بالمطلع قبسا من النور المحمدي ، وكذلك الأنجم الزهر بالنسبة للولدين جعفر وبجي فهما امتداد لسماء الأسرة العلوية

وإذا كانت الأم محورا أساسيا في تشكيل عقائد الشيعة وإقامة الدعوة لها في أنحاء البلاد المعمورة ، وقد كان دعاة المذهب يؤلبون الناس على الخلافة القائمة بتركيزهم على مأساة أهل البيت في كربلاء ويلقون في روعهم أن ولاية الأمويين والعباسيين لم يرعوا حرمة ولم يحفظوا عرضا للنساء الطاهرات ، وقد بلغ من أمر عبيد الله بن زياد والي يزيد على البصرة أن أخذ نساء البيت سبايا ذليات وكأئن من غير المسلمين الذين يجوز فيهم السبي والقتل ، ولعل هذه الحادثة عمقت من كراهية الشيعة للأمويين زمنا طويلا ، وتزداد حدتها ويعلو لهيبها كلما ذكر خطباؤهم هذه الحادثة على منابر الدعوة ومحارب المساجد ، وهذه حقيقة أية دعوة دينية سياسية فيجب أن تركز على أسس دعوية توحد شعور وعاطفة المؤيدين، وتوجه سهام الحقد إلى المخالفين تحت أي ذريعة وتبعا لأي جريمة ، وبهذا نرى أن أهم سبب في ذهاب دولة الأمويين كانت معاملتهم غير المشرفة لنساء البيت .

ولا يفتأ الشاعر يذكر ما حدث لنساء أهل البيت في كربلاء ، يقول من قصيدة له في مدح المعز [من الطويل] :

أَلَا إِنَّ يَوْمًا هَاشِمِيًّا أَظْلَهُمُ طَيْرُ فَرَّاشِ الْهَامِ عَنْ كُلِّ مِجْثَمٍ	كَيْوَمَ يَزِيدٍ ، وَالسَّبَّاءِ طَرِيدَةً
عَلَى كُلِّ مَوَارٍ الْمِلَاطِ عَثَمَمٍ	وَقَدْ غَصَّتِ الْبَيْدَاءُ بِالْعَيْسِ فَوْقَهَا
كَرَائِمِ أُنْثَاءِ النَّبِيِّ الْمُكْرَمِ	ذُعْرَنَ بِأُنْثَاءِ الضَّبَابِ وَأَعْوَجَ
فَأَبْكَيْنِ أُنْثَاءَ الْجَدِيلِ وَشَدَقِمَ	يَشْلُونَهَا فِي كُلِّ غَارِبِ دَوْسَرٍ
عَلَيْهِ الْوَلَايَا ، بِالْخِشَاشِ مُحَرَّمِ	فَمَا فِي حَرِيمِ بَعْدَهَا مِنْ تَحَرُّجِ
وَلَا هَتَكَ سِتْرَ بَعْدَهَا بِمُحَرَّمِ	فَإِنْ يَتَحَرَّمُ خَيْرُ سِبْطِي مُحَمَّدِ
فَإِنَّ وَلِيَّ الْقَارِ لَمْ يَتَحَرَّمِ	أَلَا سَائِلُوا عَنْهُ الْبَتُولَ ، فَتُخْبِرُوا
أَكَانَتْ لَهُ أُمَّا ، وَكَانَ لَهَا ابْنِمِ	أَلَا إِنَّ وَثْرًا فِيهِمْ ، غَيْرُ صَائِعِ
وَطَلَّابَ وَثْرٍ ، مِنْكُمْ غَيْرُ نَوْمِ (13)	

يقول إن اليوم الذي وقعت فيه مأساة كربلاء كان شديدا والقتال مستحرا فتطايرت أعناق الرجال وانفصلت عن الأجساد حتى ملأت ميدان المعركة ، وهذا يدل على أن أتباع الحسين - على قتلهم بالمقارنة مع جيش ابن زياد الأموي الكثيف - لم يستسلموا ، بل قاوموا بكل بسالة حتى أبيدوا عن آخرهم ، وربما عرّض الشاعر هنا في ذكره لتطاير الرؤوس بالحادثة التي هزت مشاعر

المسلمين عامة والشيعية خاصة وأدكت نيران غضبهم على الأمويين زمنا طويلا ، وهي أن جند عبيد الله بن زياد لم تكتف بفعالها الشنيعة في المعركة، بل إنه لما قتل الحسين وفاضت روحه أقدم أحد الجنود ويدعى خولي الأصبحي على فصل رأس الحسين من الجسد وألقى به إلى القائد وهو يقول : [من السريع]

أَوْفَرَ رِكَابِي ذَهَبًا فَقَدْ قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحَجَّبَا
فَقَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَمَّا وَأَبَا (14)

هذا الإسراف في التشفي من القتل دفع الناس إلى المغالاة في التشيع لآل علي ، وإظهار الحسرة والتفجع بما يرسخ الكره الدائم لولادة بني أمية ، ثم يقول الشاعر إن المعرة لم تمس الرجال فقط ، بل مست النساء أيضا ، وقد أخذن سبايا إلى يزيد الذي لم يرع لهن عرضا ولا حفظ لهن كرامة وهن بنات بيت النبوة ، وقد كن قبل هذا مقبلات على الله والجهاد في سبيله حتى تعلو كلمة الحق ويسترد الحق الضائع في الإمامة ، ولكنهن ذعرن والخيل الناجية والفرسان الأشداء يحيطون بهن وبرجالهن ، فلم يكن هناك مناص من الاشتراك في القتال على أمل الشهادة أو النصر لكن القدر خذلهن ، فباد رجالهن وبقين يعانين السبي وهتك الستر والإهانة ، وإذًا >> فلا تسامح مع من اعتدى على حرمان النبي ولا رحمة لمن لا يرحم نساء الحسين وهن يصرخن ويتضرعن حتى لانت لهن قلوب المطايا ، ولكن قلوب القتلة الأمويين لم تلن << (15).

و يشبه الشاعر فاطمة بنت النبي بمرم البتول ، ويستلزم أن يكون الحسين قبسا من النبي عيسى عليه السلام ، والشاعر يسخر من الأمويين ومن العباسيين الجاحدين لمنزلة الحسين وأمه فيذكرهما بأن قدرهما لا يبخسهما إلا كافر فهم من سلالة الأنبياء الطاهرة ، وحتى لو قبرا بسيوف ظالمة فإن القضية لن تقبر أو تموت ، فقد بعث الله من يكمل الرسالة ويرد الأمانة إلى أصحابها إنه المعز لدين الله الذي سيثأر من كل قاتل أو متشف، وعيونه التي لا تنام عن طلب الوتر، أو عن تفقد الرعية والقيام بشأها .

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذا الحقد المتفجر على الأمويين وقد زالت دولتهم في الشرق وانحى أثرهم في عهد الشاعر ، ولا نملك تفسيراً دقيقاً شافياً ، غير بعض التخمينات العارضة ، منها أنه ربما تعرض آباؤه وأجداده الأندلسيون للاضطهاد على يد الأمويين الذين حكموا الأندلس منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وقد نقول بتعرضه هو نفسه للمضايقات ومحاوله القتل أثناء مقامه

بإشيبيلية على يد الجند الأموي ، وحينما نطالع ترجمته في مختلف المصادر نجد أنه فر من الأندلس إلى المغرب بعدما حذره والي إشيبيلية بإمكانية تعرضه لمكروه وهو يصدق علنا بولائه لآل البيت ، بل إن بعض الدارسين المعاصرين >>عزوا مصرع الشاعر ببرقة إلى أيد أموية ، لأن حكام قرطبة في نظرهم ضاقوا ذرعا بحملات الشاعر العنيفة فدبروا له هذه الجريمة السياسية <<(16). وبهذا نرى أن السيوف الأموية التي طالما دعا المعز إلى تأديبها قد تمكنت من جسده كما تمكنت من الأجساد الطاهرة لممدوحيه من آل البيت في العراق .

ولم يكن فعل الأمويين في النساء أمرا عارضا أو حادثا معزولا ارتكبه شخص "غير مسؤول" ، بل كان فعلا ممنهجا ومدرسا ، وقد رأوا بادئ الأمر نفور أهل البيت سواء أعمام الرسول (العباسيين) أو أصهاره (الشيعة) منهم وتطلعهم لولاية المسلمين فعزموا على القضاء على هذا التطلع والاستشراف ، وعلموا أنهم إن تركوا هؤلاء الأعمام أو الأصهار يثبون دعوتهم فإنهم سيجدون التأييد الكبير والأنصار الكثر نظرا لأنهم محتد النبوة ومنبع النور الإسلامي مثلا في النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك عمد الأمويون- منذ أن غصبوا الخلافة- إلى إبادة نسل هؤلاء الخصوم المفترضين والقضاء على زوجاتهم وأمهاتهم حتى لا تظهر أية بادرة للثورة في الأفق ، ونجزم بأن نوايا يزيد مع الناجيات من مأساة كربلاء كانت سيئة إلى درجة كبيرة ، وقد كان يريد قتلهن بتسميمهن على الأقل، لكن تسماع الناس بذلك وعلمهم بمكانهن حال دون تنفيذهن لنواياه .

وابن هاني يصبغ على ممدوحيه هالة من التعظيم والتشريف ولم يكن هذا الثناء إلا لأنهم " أهل النبوة " فبينهم أنزل الوحي ، وهم بذلك أعلم الناس بالحلل والحرام ، ولا يختلف اثنان في أنهم خير البرية وقد يشار إليهم بالبنان ، ثم لا يلبث الشاعر أن يورد بعضا من اعتقاد الشيعة في أئمتهم ، ويقول أن أيديهم لو مسها الصخر لانجس منه الماء ، وتدفق النهر من أعماقه ، والشاعر يريد أن يضفي عليهم صفات وقدرات الأنبياء ، فهو يشير إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل إذ صدى له الماء من الحجر كآية لهم حتى يؤمنوا قال تعالى : >>وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ<<(17)، أو قوله تعالى: >>وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ

الماء>>(18)، ويقول الشاعر أنهم لو نادوا الأموات في قبورهم للبوهم النداء لظنهم أنه وقت النشور وساعة الحشر والعرض .

و ينبري الشاعر لهجاء العباسيين خصوم المعز والشيعة بوجه عام ، فيقول عنهم أنهم أبناء " الطليق " وهو يشير في هذا إلى العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد العباسيين قاطبة ، وإنما وصفه بالطليق والمرتدي بالكفر والذي عض فيه الإسار لأنه >> خرج في قومه يوم بدر فأسر يومئذ فادعى أنه مسلم <<(19)، ولم تنفعه دعوته فشد بالوثاق ، >> فعن ابن عباس ، قال :أمسى رسول الله والأسارى في الوثاق فبات ساهرا أول الليل ، فقيل : يارسول الله مالك لا تنام ؟ قال : سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِّي فِي وَثَاقِهِ ، فأطلقوه، فسكت ، فنام رسول الله <<(20) . ولهذا سماه ابن هانئ الطليق أي أنه أطلق سراحه وفك وثاقه بعد أن >> افتدى نفسه بمائة أوقية من ذهب <<(21).

وابن هانئ يعير العباسيين بأن جدهم الذي ينمون إليه ويفخرون به كان عدوا لله ولرسوله قبل أن يفتح الله قلبه للإسلام ، وفي هذا مقارنة واضحة بينه وبين علي بن أبي طالب الذي ينتسب إليه الشيعة العلويون ، فعلي لم يكن كافرا بل إنه أول من أسلم من الفتيان ولم يناسب المسلمين العداء كشأن العباس عم النبي ، ثم يعيرهم من جهة الأم ، فيقول : " أبناء نتلة "، و نتلة هذه هي أم العباس وبنت خباب بن كليب ولا نعرف بالضبط سبب تعييره لهم بها ، وهل كانت لها سقطات أو مخاز في الجاهلية شهرت بها ولاكتها الألسن جراءها ، ولكن الأكيد أيضا أن الشاعر يحاول أن يعقد مقارنة بين نتلة وفاطمة بنت رسول الله التي ينتسب لها الشيعة من ناحية الأم ، وهنا لا مجال للمقارنة بين المرأتين ولكن يمكن القول أنه >> لما كانت أعظم حجة على العباسيين هي انتسابهم إلى الرسول عن طريق فاطمة الزهراء ، فاطمة البتول ، وهي النسبة التي أكسبت الأئمة هالة القداسة علاوة على إرث النبي ، فإن الشاعر ينتقص في المقابل أم العباس " نتيلة " ويقول : هذه كانت أمة من رقيق قريش ، وهذا الرق المزعوم يحمله على إجراء قياس بين عبوديتها وبين أسر العباس في بدر ، فيستنتج منه أن نتيلة أورثت العباس لاحقا لخلافه كما فعلت فاطمة لأبنائها، بل عادة الرق والعبودية، يقول في هذا المعنى في موضع آخر: [من الطويل]

بَنِي نَتْلَةٍ ، مَا أَوْرَثَ اللَّهُ نَتْلَةً وَمَا نَسَلْتُ ، هَلْ يَسْتَوِي الْعَبْدُ وَالْحُرُّ ؟
وَأَنَّى بِهَذَا وَهِيَ أَعَدَّتْ بِرِقِّهَا أَبَاكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَدَعَوَى هِيَ الْكُفْرُ (22)

ومعلوم أن العبودية تقوم حائلا أمام الإمامة فالإمام ينبغي أن يكون حرا والعباسيون بحكم هذا الرق الموروث ليسوا أهلا لخلافة المسلمين ، وهكذا تتضافر هذه الحجج التاريخية : العبودية المفترضة ، ثم عداوة العباس للإسلام في بدر وقبل بدر وأسرهم وإطلاقه ، والتفاوت بين النسب المباشر عن طريق البنت والنسب البعيد عن طريق العمومة ، تتضافر لصرف العباسيين عن الخلافة <<(23).

وبعد هذه الموازنة أو المقارنة غير المتكافئة بين الشخصيات العلوية والشخصيات العباسية يصل الشاعر إلى بيت القصيد ومكمن الداء بعد أن ضمن تأييدا من المستمعين على الأقل ، فيجهر بمطالبه في وجه العباسيين الغاصبين ويطلب منهم رد الحق لأهله ، حق الخلافة والإمامة التي اغتصبوها من أيدي آل علي وانفردوا بها دون سائر المسلمين .

والظاهر أن الحرب الكلامية والمنافرات الشعرية بين شعراء الشيعة ونصراء العباسيين كانت في أوج اشتعالها ، وقد كانت أرض المشرق منطلق هذه الحرب وانتقل ميدانها إلى المغرب بانتقال الأسرة المعزية إليها ، ثم إن الشعراء الشيعة في المشرق كذلك يوردون أيضا مأساة فاطمة ، ويطالبون باستعادة حقها وحق أبنائها في العرش ومعاقبة الولاة العباسيين على جرائمهم في حق هؤلاء ، بل إنهم يدعون إلى الثورة والتمرّد على مظاهر الاستبداد والقسوة التي تميز حكم بني العباس .

نجح الشيعة من خلال أبواقهم الشعرية في لجم أي خروج على الحاكم ، أو حتى توجيه سهام النقد لسياسة الدولة الاقتصادية رغم ما عرف عن الأمراء الفاطميين في المغرب ومصر من إسراف وبذخ لا يقل عما عرف عن نظرائهم العباسيين ، وذلك بالتأصيل لفكرتي الإمامة والعصمة ، فالإمام معصوم عصمة الأنبياء عن الخطأ "وبذلك تحولت الإمامة من نمط سياسي يقوم على هيمنة أرستقراطية تعتمد على فكر ثيوقراطي ذي مضمون ديني عند الشيعة ، لذا فإن الشيعة قدموا بناء مماثلا ، وإن اختلف بعض الشيء ، لما قدمه الأمويون والعباسيون لهذا النمط السياسي السائد" (24).

ومن هنا جاز لنا القول بأن أشعار ابن هانئ كانت تحمل صدى قويا للصراع السياسي على الحكم ، وقد استخدم في هذا الصراع كافة الحجج والبراهين لإقناع وتحسيس المؤيدين ودحض مزاعم المعارضين والمناوئين .

الهوامش:

1. ⁽¹⁾ ابن هاني : (326-362 هـ / 938 - 973 م) :

هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي ، ولد بمدينة المسيلة من ولاية قسنطينة - بينما يرى ابن خلكان أن مولده بإشبيلية - وانتقل به أبوه إلى الأندلس ، فنشأ في إشبيلية في تربة خصيبة بالعلم والأدب ، وكانت إشبيلية آنذاك في عصرها الذهبي ، تزخر بالثقافة والحضارة ، ثم استوطن " البيرة " فعرف أيضا بالشاعر الألبيري .

اتصل في أول عهده بصاحب إشبيلية ، ومدحه فنال عنده حظوة ، غير أنه مال إلى اللهو والمجون ، وغالى في تشييعه واعتقاده إمامة الفاطميين ، كما غالى في تحرره الديني حتى اتهم بالزندقة ، ونقم عليه الإشبيليون وهما بقتله ، فأوعز إليه صاحبها أن يغادر المدينة ريثما تهدأ الحال ، فانتقل إلى المغرب وعاش مدة في الجزائر ، ثم استقدمه المعز وأغدق عليه العطايا ، فمدحه ومدح قائده جوهر ، وفي خبر وفاته اختلاف كبير ، يقول ابن خلكان : >> توجه المعز إلى الديار المصرية ، فشييعه ابن هاني المذكور ، ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به ، فتنجس وتبعه ، فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما في مجلس الأنس ، فيقال أنهم عربدو عليه فقتلوه ، وقيل خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق ، وأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته ، وقيل إنه وجد في سانية من سواني برقة مخنوقا بتكة سراويله << .

ومما يدل على منزلته الرفيعة في الشعر ما روي عن المعز حينما بلغه خبر موته ، قال : >> هذا الرجل كنا نرجو أن تفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك << .

- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج1، ص 34.

2. المعز الفاطمي : (19-365 هـ / 931-975 م) :

معد (المعز لدين الله) بن إسماعيل المنصور القائم بن المهدي عبيد الله الفاطمي العبيدي ، أبوتيم : صاحب مصر وإفريقية ، وأحد الخلفاء في هذه الدولة ، ولد بالمهدية في المغرب ، وبويع له بالخلافة في المنصورية بعد وفاة أبيه سنة 341 هـ ، فجهز وزيره جوهر وأصبحه بجيش كثيف ليفتح ما استعصى عليه من بلاد المغرب ، فسار إلى فاس وسجلماسة ففتحهما وانقادت له بلاد إفريقية كلها ما عدا سبتة فإنما بقيت لبني أمية أصحاب الأندلس ، وجاءت الأنباء بموت كافور الإخشيدي صاحب مصر ، فأشار المعز إلى القائد جوهر بالسير إلى مصر ، فقصدوها ودخلها فاتحا سنة 358 هـ ، واختط مدينة القاهرة سنة 361-389 هـ وسماها القاهرة المعزية ، وأقام الدعوة للمعز بمصر والشام والحجاز ، وفي أواخر سنة 361 هـ استخلف المعز على إفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي ، خرج من المنصورية دار ملكه بالمغرب ، فنزل بسردينية يتهيا للرحلة إلى مصر ، ثم رحل عنها في 5 صفر 362 هـ فمر ببرقة ودخل الإسكندرية يوم 6 شعبان 362 هـ ، ودخل القاهرة يوم 5 رمضان ، فكانت مقر ملكه

وملك الفاطميين من بعده إلى آخر أيامهم ، وكان عاقلا حازما شجاعا أديبا ، ينسب إليه شعر رقيق.

- إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ، تحقيق : محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 1985 م ، ص 523 وما بعدها .

3. ابن هاني الأندلسي : ديوان ابن هاني ، شرح أنطوان نعيم دار الجليل ، بيروت ، لبنان ، 1996 ، ط 1 ، ص 106 ، 107 ،

4. ابن هاني الأندلسي : ديوان ابن هاني ، ص 101 .

5. 'محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دت ص 34

6. ابن هاني الأندلسي : ديوان ابن هاني ، ص 125، 124

7. سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي أبو داود : سنن أبي داود ، مراجعة وضبط محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، لبنان، دت ، ج 1 ، ص 178 .

8. ابن هاني الأندلسي : ديوان ابن هاني الأندلسي ، ص 127

9. د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس، دار الجليل، بيروت، لبنان، ومكتبة النهضة العربية ، القاهرة، مصر، ط 14 ، 1996 ، ج 2 ، ص 418 ، نقلا عن : نخلة المدور : حضارة الإسلام في دار السلام ، ص 95 .

10. عبد الرحمن حجازي: الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي، دراسة أسلوبية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر ط 1، 2005، ص 95 ..

11. ابن هاني الأندلسي : ديوان ابن هاني الأندلسي ، ص 417 .

12. د شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 8، 1974، هامش ص 313.

13. ابن هاني الأندلسي : ديوان ابن هاني الأندلسي ، ص 196، 195.

14. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تقديم: محمد بن عيادي عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، 2003، ج 3، ص 282 .

15. محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985، ص 282.
16. المرجع نفسه: ص 285 .
17. القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 60 .
18. القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 74 .
19. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج3، ص 40 .
20. المصدر نفسه: ج3، ص 42 .
21. (21) المصدر نفسه: ج3، ص 42 .
22. ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الأندلسي ، ص 86.
23. محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، ص 289.
24. عبد الرحمن حجازي: الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي، ص 1